الدَّرس (٢)، ١٤٢٨

تطْرِيزُ

الشيخ صالح بن عبد اللَّه بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

نبذة إجمالية مختصرة

عن الإسلام

والإشارة إلى مهمات محاسنه

للعلامة عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي

المتوفى سنة ١٣٧٦ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمْـدُ لله رَبِّ العالمين، وأشْهَـدُ ألَّا إلـهَ إلَّا اللهُ وحْـدَه لا شَريكَ لَه، وأَشهَـدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُه وَرَسُولُه.

أمَّـا بَـعْدُ.. فهذا هو **الدرس الثاني** من برنامج **الدرس الواحد السادس**، والكتاب المقروء فيه: هو «**نبذة مختصرة إجمالية عن الإسلام والإشارة إلىٰ محاسنه**» للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مقدمتين اثنتين:

المقدمة الأولىٰ: التعريف بالمصنِّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: جرُّ نسبه؛ هو الشيخ العلامة القدوة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السِّعدي -بكسر السّين المشدّدة- كما هو مسموع من تلاميذه وأهل بيته، يُكنىٰ بأبي عبد الله، ويُعرفُ بابن سِعدي.

المقصد الثاني: تاريخ مولده؛ ولِدَ في الثاني عشر من محرم الحرام سنة سبعٍ بعد الثلاثمائة والألف (١٣٠٧).

المقصد الثالث: تاريخ وفاته؛ توفِّي قبل طلوع فجر يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ستٍّ وسبعين بعد الثلاثمائة والألف (١٣٧٦)، وله من العُمر تسعٌ وستُّون سنة.

المُقدِّمة الثانية: التعريف بالمصنَّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضًا:

المقصد الأوَّل: تحقيقُ عنوانه؛ اسم هذه الرسالة كما وجِد بخط صاحبها هو: «**نبذة مختصرةٌ إجمالية عن الإسلام والإشارة إلىٰ مُهمَّات محاسنه**».

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ يدورُ موضوع هذه الرِّسالة اللطيفة بين شيئين اثنين:

أحدُهما: بيان حقيقة الإسلام.

الآخرُ: الإشارة إلىٰ جملةٍ من مهمَّات محاسِنه.

المقصد الثالث: توضيحُ منهجه؛ اقتضىٰ كون هذه الرسالة نُبذة وجيزة أن تكون منسوجة علىٰ وجه الاختصار، فأعرض عن بسط مهمَّاتٍ مع علمهِ بها، واقتصر علىٰ طرفٍ يسير من الأدلة مع كثرة ما في هذا الباب منها.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد باعتقاد كماله، الذي لا غاية فوقه في الكمال الذي متعلقه ما جاءت به الرسل من صفات المولىٰ، وإثبات الصفات علىٰ الوجه اللائق بعظمة الله وكماله المطلق، والعلم اليقيني بأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الكائنات؛ دقيقها وجليلها علويّها وسفليها، وأنه لا يأتي بالخير إلا هو ولا يدفع الشر إلا هو، وأنَّ النعم كلها من الله لا فرق بين الدِّينية والدنيوية، ولا بين ما حصل بسبب أو بغير سبب من العبد، فإن الأسباب كلَّها بيد الله.

ثم امتلاء القلب من تعظيم الله والإنابة إليه في كل الأمور، والتأله والتعبد لله بما شرعه علىٰ ألسنة رُسُله، وطاعته وطاعة رُسله خصوصًا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي نحن مأمورون بالإيمان به وبما جاء به جملة وتفصيلًا، معرفة واعتقادًا وعملًا.

هذا هو حقيقة دين الإسلام ومجمله، والعقائد والشرائع الظاهرة والباطنة المشروعة علىٰ لسان رسوله تفصيلٌ لهذا الأصل؛ فهو: دينُ الله الذي ليس له دينٌ يُدان به سواه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وهو الذي عليه جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم إلىٰ يوم الدِّين، وقرره علىٰ لسان نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأثبت ما جاءت به الرسل من الحق وهيمن علىٰ جميع الكتب السابقة؛ بإثبات جميع ما فيها من الحق، وردِّ ما زيد فيها أو نقص أو حُرِّف، ثم أكمل الله له الدِّين وأتم عليه وعلىٰ أمّته النعمة ورضي لهم الإسلام دينًا.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجُملة معنىٰ الإسلام الشرعي:

فإن الإسلام تارةً يُطلق ويُراد به الإسلام الكوني كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران:٨٣].

وتارةً يُطلق ويُراد به: الإسلام الشرعي؛ وهذا هو مراد المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الرسالة: وهو الإطلاق المعهود في خطاب الشرع، وهذا الإسلام الشرعي له معنيان اثنان:

أحدهما: **معنًى عام: وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله،** وهو بهذا المعنى يتناول دين الأنبياء جميعًا؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المائدة:٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

فإنَّ الإسلام في هؤلاء الآيات ونظائرها يُراد به الدِّين الذي جاء به الأنبياء جميعًا: وهو (الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله).

والآخر معنًى خاص: ويُطلق تارةً ويُراد به الدين الذي جاء به محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُني الإسلام على خمس**» فإن الإسلام هاهنا يُراد به: الدين الذي بُعث به محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر الأنبياء، وربما أُطلق على معنى أخص من ذلك بالاقتصار على بعض ذلك الدِّين إذ يُراد به الأعمال الظاهرة؛ كما جاء في حديث جبريل الطويل المرويّ في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وفي «صحيح مسلم» من حديث عمر، وفيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أحكام الإيمان والإسلام والإحسان، ثم خصّ في خطابه الإسلام بالأعمال الظاهرة.

وقد بين المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أن الإسلام مبنيٌ على (الاستسلام لله بالتوحيد).

ثم شرع يُبين في ثنايا كلامه حقيقة هذا التوحيد:

وأن منها ما يعود إلى إثبات الكمالات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك توحيد الأسماء والصفات.

ومنها: ما يتعلّق بإثبات ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه الخالق الرازق المدبّر إلى آخر ما ذكر، وذلك توحيد الربوبية.

ومنها: إفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالتأليه والتعظيم وامتلاء القلب لعظمته والإنابة إليه، وذلكم هو توحيد الألوهية لربّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في آخر كلامه بعد أن بين أن الإسلام هو دينُ الأنبياء جميعًا بيَّن أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُصَّ من ذلك الدين بأكمله، فكان دينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهيمنًا على جميع ما سبق؛ لأنه أثبت ما جاءت به الرسل من الحق مُهيمنًا بما أنزل عليه على جميع الكتب السابقة التي أُنزلت على

الأنبياء؛ وذلك مصداق قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨]، فالقرآن الكريم مُهيمنٌ علىٰ كل كتاب سابق، ودين الإسلام الذي جاء في هذا الكتاب مُهيمنٌ علىٰ جميع الأديان السابقة.

وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ تَعَالَىٰ في تفسير هيمنة القرآن الكريم، وتبعًا لذلك يكون الخُلف في معنىٰ هيمنة الإسلام، وكلام السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ تَعَالَىٰ لا يخرج عن ثلاثة أقوال:

أحدها: أن **المهيمن هو الأمين**، فهذا القرآن أمينٌ علىٰ ما سبق من الكتب، وهذا الدين أمينٌ علىٰ ما سبق من أديان الأنبياء.

وثانيها: أن **المهيمن هو الشاهد**، فهذا الكتاب شاهدٌ علىٰ صحة جميع الكتب السابقة وهذا الدِّين شاهدٌ علىٰ صحة أديان الأنبياء المتقدمة عليه.

وثالثها: أن **المهيمن هو الحاكم**، فالقرآن حاكمٌ علىٰ تلك الكتب، ودين محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حاكمٌ علىٰ الأديان.

وهذه المعاني مُتقاربة كما قال ابن كثير؛ يُصدِّق بعضها بعضًا وهيمنة القرآن تشمل هذه المعاني جميعًا.

فالقرآن هيمن علىٰ ما سبقه من الكتب؛ لأنه أمينٌ شاهدٌ حاكمٌ عليها، وكذلكم دين الإسلام هيمن علىٰ ما سبق؛ لأجل هذه المعاني التي ذكرناها.

وهو الدين المشتمل علىٰ الإيمان بجميع الرسل وما أوتوه من عند الله من عقائد وشرائع عامة، قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٦]، إلىٰ آخرها، فهو كما ترىٰ قد تضمن جميع الإيمان بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وبكل حقٍّ كان ويكون إلىٰ أن تقوم الساعة، فلم يبق دينٌ حقٌّ إلا دخل فيه واشتمل عليه.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة أنَّ الإسلام مشتملٌ (علىٰ الإيمان بجميع الرسل، وما أوتوه من عند الله من عقائد وشرائع عامة، قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة]).

فدلَّ هذا علىٰ أن من خصائص دين الإسلام: أنه صدَّق جميع ما جاء به الأنبياء واشتمل هذا الدِّين عن الكمالات التي اشتملت عليها أديان الأنبياء، فلم يبق شيء من الحق الذي جاء به الأنبياء فيما سبق إلا وقد انطوىٰ في هذا الدِّين الذي اختاره لنا ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالدين الحق مُستتمٌّ في الدِّين الذي بُعث به محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعُلم بدليل الخطاب: أنَّ الأديان الباطلة قد أعرض عنها الإسلام بالكليّة، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا أن نؤمن بالحق فقال: (﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦]) الآية.

فعُلم بهذا: أن ما كان باطلًا لم يأت به الأنبياء، وذلك كالأديان المأخوذة عن خُثالات الأذهان وزبالات الآراء والسحرة والشياطين فإنها باطلٌ قد أعرض عنها الإسلام فلا يُلتفت إليها أبدًا.

ومن براهينه: أنه يأمر بالإيمان بكل حقٍّ وصدقٍ وبرٍّ وعدلٍ وصواب، وبكل خير وصلاح وإصلاح وهدي ورشاد وإحسان وخُلق جميل، وينهىٰ عما يُضاد ذلك، وأن جميع محاسن ما عليه الأمم قديمًا وحديثًا قد دعا إليها وأرشد لها وبيّنها بأحسن عبارة وأوضحها وقرَّب طريقها، وأن كلَّ قبيح وشر قديمًا وحديثًا قد نهىٰ عنه، وحذر وأرشد إلىٰ الطرق المبعدة عنه.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة بُرهانًا من براهين تخصيص هذا الدِّين وكماله وذلك (أنه يأمر بالإيمان بكل حقٍّ وصدقٍ وبرٍّ وعدلٍ وصواب) وأن كل خيرٍ وأمرٍ مُستحسنٍ في الأمم جميعًا قد جاء هذا الشَّرع بالأمر به والحث عليه وتحسين فعله.

وقد جاءت آيةٌ من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تضُمُّ ذلك لكه وهي قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل:٩٠] قال ابن مسعودٌ وغيره: «أجمع آية في كتاب الله هذه الآية».

وهذا المعنىٰ الذي ذكره ابن مسعودٍ وجماعةٍ من السَّلف أرادوا به أن الأوامر كلَّها ترجع إلىٰ هذا الأصل، فلا يوجد أمرٌ مذكورٌ في القرآن؛ بل ولا في الإسلام كله مما جاء في حديثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو انعقد علىٰ الإجماع إلا وهو راجعٌ إلىٰ هذه الآية، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربىٰ، فالحقوق والأمور المستحسنة كلها ترجع إلىٰ العدل والإحسان.

وذكر إيتاء ذي القربىٰ منها علىٰ وجه الإطلاق من ذكر الخاصِّ بعد العام لأجل أمرٍ اقتضاه وهو:

تعظيمه وملاحظته بالعناية؛ لأن كثيرًا من الناس يقع من الناس يقع منهم الظُّلم في هذا الأمر، فأُفرد واحدٌ من الأوامر عن عموم الآية المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠] لأجل حظِّ الناس علىٰ الاهتمام به.

والمقصود: أن هذه الآية من سورة النحل جامعةٌ لكل خير و.. وعدل وبر وإحسان جاء الشرع بالأمر به، فالأمر بالصلاة والصيام والزكاة والحجِّ وبر الوالدين والإحسان إلىٰ الجيران وهلمَّ جرا كلها مذكورةً في هذه الآية.

ومن أعظم محاسنه أنه مبنيٌّ علىٰ التوحيد الخالص، والدِّين الخالص في الاعتقاد والأقوال والأفعال؛ فمن آثار هذا التوحيد إخلاص العمل الظاهر والباطن لله في حقوق الله وحقوق خلقه، والاعتماد الكامل علىٰ الله في جلب المنافع ودفع المضار، لعلم الموحِّد أنه المتفرِّد بالنفع والضر والعطاء والمنع، وأن الخَلق كلَّهم أعجز وأقل من أن يعارضوا إرادة الله ومشيئته.

ومن آثار هذا التوحيد نبذُ الشرك والغلو في المخلوقين، وألا يُرفع المخلوق فوق منزلته التي أنزله الله بها، ولا يُعْطَىٰ من خصائص الربوبية والإلهية شيئًا، لعلم الموحِّد أنه لا مألوه ولا معبود بحق إلا الله، وأن الشرك بالله هو أظلم الظلم وأقبح القبيح.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من محاسن هذا الدين: (أنه مبنيٌّ علىٰ التوحيد الخالص) وذلك بالتوجه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده دون غيره؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، فتكون القلوب متوجهةً في عقائدها وأعمالها والألسنة في أقوالها والجوارح في أفعالها متوجهةً إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، وفي هذا من جمعية القلوب وسكون النفس وانشراح الصدر ما لا يكون إذا كان العبد مُشركًا في من يتوجه إليه؛ لأن العبد إذا صرف شيئًا من هذه العبادات لأكثر من واحد صار قلبه مشوَّشًا بتقديم حقِّ هذا علىٰ هذا أو بتعظيم حق هذا علىٰ هذا.

ولذلك يوجد في قلوب المشركين وصدورهم من الحرج والضِّيق والنقص والظنَك ما لا يُعبر عنه الإنسان، ولا يعرف هذا إلا الموحد الذي يتوجه بقلبه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

فإنه كلما زاد كمال إخلاصه وتوجهه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حصل له من الطمأنينة والسكينة ما لا يذوقه ذائقٌ بلسانه وإنما يذوقه العارفون بقلوبهم.

فجاء الإسلام بإخلاص الدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده كي تسلم النفوس من التعلُّق بغيرها، وتبرأ من التشويش والاضطراب، فإنَّ العبد إذا توجه بعمله إلىٰ واحد كان ذلك أجمع لقلبه.

وقد سمعت شيخنا سليمان .. رئيس قضاة حائل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُنشد كثيرًا بيتًا عظيمًا هو:

اعمـــــل لوجـــــهٍ واحـــــدٍ يكفيـــــك كـــــل الأوجـــــه

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن العمل لوجهٍ واحد يُغني عن الالتفات إلىٰ الوجوه الأخرىٰ، وهذا معنىٰ التوحيد والإخلاص، فإذا كان العبد يعمل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يحتج إلىٰ الالتفات إلىٰ غيره، ولمَّا تمكن هذا من القلوب عرَف أهل التوحيد أنَّ الإسلام جاء بنبذ الشرك والغلو في المخلوقين فلا يرفعون أحدًا من المخاليق فوق منزلته التي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إيّاها، ولا يعطونه شيئًا من خصائص الربوبية والإلهية لعلمهم أنَّ المعبود واحد، وأن توجه القلوب في أعمالها وأقوالها وعقائدها لا تكون إلا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو أظلم الظلم وأقبح القُبح، لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ذو الربوبية والألوهية والأسماء والصِّفات، فمن كانت له هذه الكمالات فهو المستحق أن يكون موحدًا يُخلص العبد له دينه.

والمقصود: أن تعرف أن من أعظم محاسن هذا الدِّين أنه دينٌ مبني علىٰ التوحيد، وإذا أردت أن تعرف طرفًا من آثار تشوُّش القلب عند توجهه لأكثر من إله؛ فانظر إلىٰ اختلاف النصارىٰ في حقيقة التثليث، وما كتبه العارفون منهم بذلك الدين أو من خالطهم من أهل الإسلام من أهل الأندلس والشام، وما ذكروه في الكتب المصنَّفة عن اضطراب النصارىٰ وتحيُّرهم واختلافهم في من يتوجهون إليه في أعمالهم، هل هو واحدٌ أو ثلاثة.

ثم من محاسن هذا الدين ما يتبع هذا الأصل الجليل من الأوامر الجميلة الكفيلة بصلاح الدين والدنيا والأحوال كلها؛ كالأمر بالصلاة والزكاة والصدقة وأنواع البذل في المشاريع الخيرية، والصيام والحج والعمرة والجهاد لمن عارض الحق ومنع الدعوة إلىٰ الدين الحق، والأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر.

وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلىٰ المماليك والجيران والأصحاب وعموم الخلق من بذل العلم والمال والجاه، وطلب العلوم النافعة المتنوعة، والعفو عن الناس، وإجابة الدعوة وعيادة المريض وتشييع الجنازة.

والسلام والتحية، وردها بمثلها أو أحسن منها، وتشميت العاطس وإجابته، ومحبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه في جميع النوائب، والفزع إليه في كل المهمات، والتوكل عليه.

والعمل بالأسباب النافعة والصبر علىٰ طاعة الله وعن معصية الله وعلىٰ أقدار الله المؤلمة ابتغاء وجهه، والشكر لله علىٰ نعمه، وشكر من أحسن إليك من الخلق، ومحبة ما يحبه الله ورسوله.

والحياء والعفة عن القبائح كلها، والعدل في الأحكام وفي جميع المعاملات والحقوق، وحسن الوفاء والاستيفاء، والوفاء بالعقود والعهود والأمانات كلها، والصدق وترك الغضب والحقد والحسد، والحث علىٰ التواضع وعدم التكبر علىٰ الحق وعلىٰ الخلق، وترك العجب والخُيلاء، ونهي النفس عن الهوىٰ.

والرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا، وحُسن الظن بالله والإكثار من ذكره آناء الليل والنهار، والتفكر فيما دعا الله عباده إلىٰ التفكُّر فيه؛ في آياته المسموعة وآياته المشهودة، والاستدلال به علىٰ مدلوله والعمل بمدلوله.

وسنُّ كل سنة حسنة والتحذير من ضدها، والتوبة من جميع المعاصي، والخروج من المظالم ونصر المظلومين وقمع الظالمين، وغير ذلك من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي بمجرد ما يتصورها صاحب اللُّب يجزم جزمًا لا ريب فيه أن الدين المشتمل عليها هو الدِّين الحق، وأن كل ما عارضه فهو باطل، وأنه هو الدين الصالح لكل زمان ومكان، وأنه لم يدخل ولن يدخل علىٰ الخلق نقصٌ ولا ضرر في دينهم ولا دنياهم إلا من تضييع هذا الدِّين، الذي كفل كفالة صارمة أن من قام به استقامت أموره وصلحت أحواله، وأنه هو الدِّين الذي يُصلح العقول والقلوب والأخلاق والآداب والتربية النافعة، ويحفظ من الانهيار إلىٰ الدمار والشقاء، والواقع أكبر شاهدٌ علىٰ هذا.

وما من صلاح تسرَّب إلىٰ أي أمة من الأمم إلا وأصله ومنبعه هذا الدين القويم، وإذا أردت أن تعرِف مقداره فزنه بالميزان الصحيح والعقل الرجيح بكل دينٍ خالفه؛ تجد أنه لا نسبة بينها وبينه بوجه من الوجوه.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ (من محاسن هذا الدين) أيضًا أن: (الأوامر الجميلة الكفيلة بصلاح الدين والدنيا والأحوال كلها) كلها مما جاء الإسلام به.

وقد ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ طرفًا طويلًا من أحكام الدين التي انتظمت فيه وجاءت بصلاح

الدين والدنيا معًا.

وهذ الجملة التي ذكرها المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وما اتصل بها من أمثالها في كلام المتكلمين يغني عنها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأعراف:٢٩]، فدلت هذه الآية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بالقسط الذي هو العدل، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمرًا بالعدل فحينئذٍ فإن كل الأوامر الجميلة الكفيلة بصلاح الدِّين والدنيا وخير الأولىٰ والآخرة كلها مما يرجع إلىٰ هذا الأصل.

وهذا يُنبِّئك نبأ يقين أن هذا الدين الذي جاء منظومًا أكثرُه في القرآن الكريم قد جاء بكل نافعٍ صالحٍ للخلق، وعُبِّر عن ذلك بجمل يسيرة تحتها معانٍ كثيرة.

وقد ذكر أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في تفسير الجوامع الكلم التي أوتيها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن منها: القرآن فتأمَّل هذا في هذه الآية التي ذكرنا: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأعراف:٢٩]، تجدوا أنَّ كل عدلٍ ينشأ منه صلاح أحوال الناس في دينهم ودُنياهم فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأمر به.

ثم من شواهد صدق اشتمال هذا الدين علىٰ ما به صلاح أمور الناس وأحوالهم: أنك لا تجد شيئًا محمودًا عند أمةٍ من الأمم سابقةٌ لأهل الإسلام أو بعدهم إلا وذلك الصلاح موجودٌ في أصل هذا الدين أو ناشئ عن الأخذ به كما يوجد عند النصارىٰ واليهود وغيرهم ممن تقدم علىٰ المسلمين مما يُحمد فيهم من خصال حميدة فإن هذا الدِّين قد جاء به، فإذا وجد فيهم الصدق فإن الأمر بالصدق في الإسلام أظهر، وهو في عهده أكثر وأشهر.

ولو وجِد هذا في أمّةٍ مخالفةٍ من بعدهم ستجد أن ما تمالؤوا عليه من الصلاح والإصلاح مأخوذٌ من الإسلام كما قيل في الأنظمة التي سنّها القانونيون الفرنسيون أو الهنديين بعد الثورات الثقافية أنهم استفادوا فيها من التَّشريعات التي انتظمت في فقه المالكية؛ لأنهم قريبون منهم فوقع التأثُّر به كثيرًا، فما سرىٰ إلىٰ هذه الأمم من صلاحٍ في أحوالها بعد ثوراتها الثقافية فيما زعموا إنما هو يرجع إلىٰ دين الإسلام وهو مأخوذٌ منه.

ويكفي في هذا المقام: أن تعرف أن الدين الإسلامي مُشتمل علىٰ أخبار وشرائع، وأن أخباره كلها ليس منها خبر واحد صحيح قد أتىٰ بما يخالف المعقولات والمحسوسات، ومن ادعىٰ خلاف هذا تبين فساد قوله بأدنىٰ تأمل؛ بل أخباره نوعان:

نوعٌ يشهد العقل بصحتها ومطابقها للحق.

ونوعٌ لا يهتدي العقل إلىٰ تفصيلها؛ بل يحار فيها وليس عنده ما يبطلها ويقدح فيها.

وقد أظهر الباري تعالىٰ في هذه الأزمنة المتأخرة من آياته الكونية ومن العلوم الكونية والاختراعات الباهرة ما هو من أكبر الأدلة علىٰ ما أخبر الله به ورسوله من أمور الغيب، فلقد كان الكفار الملحدون ينكرون ما أخبر الله به ورسوله من الأمور التي يستبعدونها علىٰ قُدَر المخلوقين؛ فأنكروا البعث بعدما كانوا ترابًا ورفاتًا واستبعدوا الإسراء برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ في ليلة واحدة، واستبعدوا تنادي أهل الجنة وأهل النار مع البُعد السحيق، واستبعدوا كثيرًا من أمور الغيب استنادًا علىٰ مجرد عقولهم الفاسدة، ولم يزل الملحدون يستبعدون وينكرون كل ما لم يشاهدوه، فأراهم الله في هذه الأوقات ما يكذبهم وينقض استبعاداتهم مما شاهدوه في الآفاق وفي أنفسهم.

فإذا كان المخلوق الناقص من كل وجه ضعيف العلم ضعيف الإرادة ضعيف القدرة ضعيف العمل قد علَّمه الله ما لم يكن يعلم من علوم الطبيعة والمادة، حتىٰ تمكَّن الناس من الطيران في الهواء والغوص في لجج البحار، والتخاطب من مشارق الأرض ومغاربها، وغير ذلك من المخترعات الحديثة، فكيف بمن هو علىٰ كل شيءٍ قدير الذي انقادت لقدرته عناصر العالم العلوي والسفلي، ونفذت مشيئته في جميع الكائنات، وأحاط عمله بكل شيء، وأظهر البراهين القاطعة والأدلة الواضحة علىٰ صدق ما أخبر به، وأخبرت به رسله من أدلة عقلية ونقلية وفطرية وكونية؟

فبعداً للمكذبين: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية].

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة ما يُصدق عظمة الإسلام ويدل علىٰ جلالته، وذلك بأن تعرف أن دين الإسلام مُشتملٌ علىٰ أخبار وشرائع، وأن أخباره كلَّها ليس منها خبرٌ واحد صحيح قد أتىٰ بما يُخالف العقل والحِس؛ بل هي علىٰ وفق ذلك؛ لكنها لا تخرج عن أحد نوعين:

أحدهما: نوعٌ يشهد العقل بصحته ومطابقته في الواقع.

والآخر: (نوعٌ لا يهتدي العقل إلىٰ تفصيلها؛ بل يحار فيها وليس عنده ما يُبطلها) وهذا الثاني هو الذي يُسمىٰ بمحارات العقول، ومعنىٰ: (محارات العقول) ما تقصُر العقول عن معرفته، ومحالات العقول: ما تعلم العقول استحالته.

وهذا الدين -بل الأنبياء جميعًا- كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في آخرين

جاؤوا بمحارات العقول ولم يجيئوا بمحالات العقول، فإنهم جاؤوا بأمورٍ ربما احتارت العقول فيها ووقفت عن فَهم حقائقها وعقْل مقاصدها؛ لكن لا يأتي الأنبياء أبدًا بشيءٍ تُحيله العقول؛ لذلك ليس في شرائع الإسلام ولا أخباره شيءٌ يقطع العقل الصحيح بإحالته.

وقد ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من دلائل تصديق هذا المعنىٰ: وأنَّ خبر الشرع قد يأتي بما تتحيَّر فيه العقول دون ما تستحيله العقول ما انتظم في الصدر الأول من الخبر عن الإسراء برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم رجوعه في الليلة نفسها فقد أظهر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الآلات العصرية ما ينقل الناس في مثل هذه المدة كتلك المسافة التي اتفقت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعُلم أن وقوعها حينئذٍ كان مُحيرًا لعقول المشركين لا أنه مُحالٌ في الأمر نفسه، بل صار عند الناس من القُدرة التي وهبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياها ما يُمكِّنهم من مثل ذلك.

وهكذا كل شيءٍ تحار العقول فيه فإن المقطوع به: أنه حقٌّ لا مرية فيه، وقد تبلغ العقول علمه في زمن وتقصر عن علمه في زمن آخر.

وكذلك الشرائع والأوامر والنواهي كلها علىٰ وفق الميزان الصحيح، لأنها تضمنت الأمر بكل خيرٍ نافعٍ، والنهي عن كل شرٍّ ضار، فما أمر بشيءٍ فقال العقل: ليته نهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أخبر بشيءٍ فجاء علىٰ خلاف المحسوس المعقول.

وما من علم صحيحٍ يوجد في أي أمةٍ كانت إلا وقد دعا إليه وأرشد، ونبه الخلق علىٰ سلوك طريقه، وما من عمل صالحٍ نافع إلا وقد أمر به وأرشد إليه، وكلما ازدادت الجماعات أو الأفراد في القيام به علت درجتهم وارتقوا في درجٍ الكمال.

ولقد خضعت أرباب العقول لهدايته وشرائعه وإصلاحه الكامل، ولقد حاول أعداؤه الانتقاد علىٰ بعض أفراد الشرائع لفرط العداوة والهوىٰ والتعصب، فبيّن بالبراهين الواضحة بطلان انتقاداتهم، وأن الشرع مُطلقًا من دون قيدٍ وشرط قد مشىٰ علىٰ الصراط المستقيم أصولًا وفروعًا، وأنَّ كل أمرٍ خلصت مصلحته أو كانت مصلحته أرجح من مضرّته فقد أمر به، وما خلُصت مفسدته أو كانت المفسدة راجحة علىٰ المصلحة إلا وقد نهىٰ عنه.

واعتبر هذا الأصل في العبادات والمعاملات والجنايات وغيرها تجدها شاهدة لهذا الأصل الشرعي المؤيد بالبراهين.

ذكر المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة أنَّ من محاسن هذا الدين أن شرائعه وأخباره: (كلها علىٰ وفق الميزان الصحيح) يعني أنها موافقةٌ للعقل، ولا يُمكن أن تكونَ مخالفةً له، فإذا تأملت ما انتظم في هذا الدين من الأمر بالمصالح والنهي عن المفاسد علمت أن ما أُمر به كان علىٰ وفق ما يقتضيه العقل الصحيح، وأن ما نُهي عنه كان علىٰ وفق العقل الصحيح، ولذلك امتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الناس بإنزال هذا الميزان الذي يميزون به بين المصالح والمفاسد فيمتن عليهم بإنزال الكتاب كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورىٰ:١٧].

والمراد بالميزان الآلة العقلية التي يُميِّزون بها بين المصالح والمفاسد، وهي التي يذكرها الأصوليون باسم القياس، وقد استحسن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتاب «إعلام الموقِّعين» وتبعه ابن سِعدي في كتاب «القواعد والأصول الجامعة» استحسن هجر ما اصطلح عليه الأصوليون من تسمية تلك الآلية العقلية بالقياس إلىٰ تسميتها بالميزان؛ لأنه هو اللفظ الذي جاء في الشرع كما أن الميزان لا يكون إلا صحيحًا، أما القياس فإن الأصوليون والفقهاء مُجمعون علىٰ أن القياس منه قياس صحيح ومنه قياس فاسد.

واعتبار هذا الأصل وهو: الأخذ بالميزان يُرشد إلىٰ هذه الجملة التي ذكرها المُصَنِّف من أن كل خيرٍ نافعٍ قد جاء الشرع بالأمر به، وأن كل شرٍّ قد جاء الشرع بالنهي عنه.

وما من علمٍ صحيح يوجد في أمةٍ من الأمم إلا وتجد الدعوة إليه في هذا الدِّين، فالعلوم العصرية والمعارف المتأخرة التي انتشرت مع تطور أحوال العمران عند الناس جاء الشرع بالأمر بها والحث عليها [بانجرادها] مما ينفع الناس.

فاتخاذ الآلات التي تُمكن الناس من مصالح دينهم ودُنياهم يرجع إلىٰ آي كثيرٍ من القرآن وأصول عدة من الشرع.

ولذلك فإن أصحاب هذه المعارف إذا مازجوا هذا الدِّين، وطالعوا في القرآن ونظروا في سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفوا أنَّ هذا الدِّين حق، فإنهم يرونه مُنتظمًا في أخباره وأحكامه ما استقرت عليه معارفهم المتأخِّرة، وكم من معرفةٍ وصل إليها الخلق بأخرة قد جاءت مذكورةً في القرآن الكريم، وهذا هو الذي صار عند متأخري المسلمين مسمًّىٰ بالإعجاز العلمي، وهذه التسمية -كما سلف- محل مؤاخذة ولا تخلو من نظر، وعليها اعتراضات وقد حصل من الآخذين بها غلوٌّ وتحميل للنصوص بما لا تحتمل؛

ولكن الأصل الذي بنوا عليه وهو أن معارف الخلق تصل إلىٰ شيءٍ جاء الشرع به من قبل هذا حق، فيوجد في معارف الخلق ما اكتشفوه وعرفوه، وقد جاء ذلك مذكورًا في القرآن الكريم أو في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن محاسن هذا الدِّين ما أمر به من أداء الحقوق للأهل والأولاد والمماليك، وحقوق الراعي والرعية بعضهم لبعض، فكلها مطابقةٌ للعدل والصلاح والإصلاح، وقد نبهنا علىٰ بعض هذا الحكم في كتابنا السؤال والجواب.

وكذلك المواريث وتفاصيلها الجميلة والمعاملات الواسعة بين الناس كلها مبنيةٌ علىٰ العدل والمصلحة وتمام الانتظام المشتمل علىٰ مصالح المعاش والمعاد.

ومن محاسنه ما شرعه من الحدود علىٰ الجرائم وتنوعها وصفاتها بحسب الجرائم، لما يحصل بها من تمام الردع والزجر علىٰ أكمل وجه وأعدله.

ومن أجَلّ محاسن هذا الدين أنه أحلّ كل طيبٍ من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والأقوال والأفعال، وحرَّم كل خبيثٍ منها، وأنه ما من طريقٍ محرم يتوهم المتوهم أن الحاجة أو الضرورة تدعو إليه إلا وفي الطريق المباح غُنيةٌ عنه وفُسحةٍ مع ما اشتمل عليه المباح من المنفعة والخير.

نظم المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة أنواعًا من محاسن هذا الدين منها: (ما أمر به من أداء الحقوق للأهل والأولاد والمماليك، وحقوق الراعي والرعية كلها مطابقةٌ للعدل والصلاح والإصلاح) ويكفي في هذا النظر في قول الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] فإن اسم الأمانات يشمل الحقوق جميعًا سواءً كانت تلك الحقوق لله أو كانت تلك الحقوق للخلق بعضهم لبعض سواءً كان حقًّا دينيًّا أو حقًّا دنيويًّا.

وكذلك من محاسن هذا الدين: ما جاء فيه من أحكام المواريث وقسمة ميراث الميت بعد موته، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه.

ومنها أيضًا: ما شرعه هذا الدين من الحدود يعني العقوبات علىٰ الجرائم أي الذنوب، وتنوع تلك العقوبات واختلاف مقاديرها بحسب الجرائم التي تقع من الخلق بما في تلك العقوبات من تمام الردع والزجر علىٰ أكمل وجهٍ وأعدل، ولذلك لما كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القِصاص قال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩]، فإن الحياة التي كتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخلقه بحدود القصاص هو

حصول العظة والارتداع عند من بقي بعد ذلك من اقتص منه فينكف عن إزهاق الأرواح، وإهراق الدماء لأنه يعلم أن عقوبته تؤول إلىٰ هذه الحال.

ومما ينبه إليه: أن التعبير عن الحدود بالجرائم سائغ باعتبار الوضع اللغوي، وجاء في الحديث ما يشهد له كما في «الصحيحين» أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «أعظم المسلمين جُرمًا من سأل عن شيء لم يُحرَّم فحرِّم لأجل مسألته».

فأطلق علىٰ المؤاخذة؛ وهي: الذنب أطلق عليه اسم الجُرم، فدل علىٰ أنه يسوغ إطلاق اسم الجُرم والجريمة علىٰ الذنب الذي يُخالف به العبد الشريعة؛ لكن لا يسوغ إطلاق اسم المجرم عليه فإذا قَتل القاتل أسرق السارق أو قطع القاطع فإنه لا يجوز تسميته مُجرمًا، ولذلك لم يأت إطلاق هذا الاسم عليه ففرقٌ بين الفعل أو إيقاع الاسم؛ لأن المجرم لا يكون إلا علىٰ الكافر.

فمن تأمل القرآن الكريم وجد ذلك كما قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه].. في آي أُخر.

فينبغي أن تعرف الفرق بين تصرف هذا الأصل فعلًا وأنه سائغ، وأما إطلاقه علىٰ اسم الفاعل وتسمية الجاني الذي أوقع شيء من هذه الحدود أن هذا لا يسوغ، لأن اسم المجرم يُراد الكافر، فإذا قيل: فلان مجرم فهو كقوله: فلان كافر، لأن هذا هو المعنىٰ الذي نزل عليه هذا اللفظ في الخطاب الشرعي.

ثم ذكر رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ في آخر الجملة السابقة: أن من محاسن هذا الدين: أنه أحل الطيِّبات من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والأقوال والأفعال، وحرَّم كلَّ قبيح منها، وأنه أغنىٰ الخلق لما جعل لهم من المباح ومنع عنهم الحرام، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، أو أن هذا .... بكونها مُباحةً للخلق.

وبالجملة فقد بعث الله محمدًا بالهدىٰ ودين الحق، فكل علم نافع وعمل صالح فقد دعا إليه وجاء به، وظهر ذلك في أخلاقه الكريمة وأخلاق أمَّته القائمين بدينه، فكان في أخلاقه الجميلة المتنوِّعة وأخلاق أمته القائمين بما جاء به عِلمًا وعملًا، وآثار هذا الدِّين في علومهم وأخلاقهم وتربيتهم العالية وما فاقوا به الأولين والآخرين أكبر شاهد ودليل علىٰ كمال دينهم، الذي أوصلهم إلىٰ ما وصلوا إليه.

وما حصل النقص علىٰ المسلمين إلا بتركهم لبعض دينهم؛ فحيث كان قيامهم بالدين تامًّا كانت

أحوالهم كلها مستقيمة، وحيث ضعف قيامهم به حصل النقض بحسب ذلك، فهذا برهانٌ علىٰ أن الصلاح يدور مع دين الإسلام وجودًا وَعدمًا.

فأصل الصلاح وفرعه وقيامه وتمامه بسلوك دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم والحق المبين، وما سواه من كل دين يُعارضه فهو منبعُ الشر والفساد والإفساد للعقائد والأخلاق والأعمال والدين والدنيا وحسبنا الله ونعم الوكيل.

لما فرغ المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من بيان طرف محاسن هذا الدين علىٰ وجه الإجمال والاختصار، ختم بتقرير أصلٍ عظيم: وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعث محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدىٰ ودين الحق، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ﴾ [الفت:٢٨].

والهُدىٰ: اسم جامعٌ لكل عمل نافع.

ودين الحق: اسم جامعٌ لكل عمل صالح.

فالعلوم النافعة والأعمال الصالحة كلها مما بعث به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وآثار هذه العلوم والأعمال في النفوس عظيم شريف المنزلة جليل الموقع، ومن طالع أحوال الرعيل الأول عرف آثار هذا في أخلاقهم وأحوالهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

ولم يحصُل النقص علىٰ المسلمين في أمورهم إلا بسبب نقصهم في الأخذ بدين ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلما كان قيامهم بالدين تامًا كانت أحوالهم مستقيمة، وكلما فرطوا في شيء من الدين لحقهم النقص بقدر ذلك التفريط، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء].

ولم تأت هذه الآية علىٰ نسق الاسم المفهوم وهو: المسلمون، فإن إطلاق المسلمين يعم جميع المتبعين لهذا الدِّين، والمؤمنون يخص منهم أرفع مرتبة، فلما ذُكرت هذه الآية: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء] تنبيها أن الكافرين يمتنع تسلطهم مع كمال الإيمان، فكلما كمُل الإيمان واستقامت أحوال الناس علىٰ الدِّين كلما جعل الله عَزَّوَجَلَّ لهم الشوكة وحال بينهم وبين الكفار أن يتسلَّطوا عليهم، وكما يكون هذا في الأمة جمعاء فإنه يكون في أفرادها فإن الإنسان كلما زاد إيمانه ورسخ يقينه واستكمل المعارف الإيمانية النافعة كلما امتنع تسلط أهل الفجور عليه سواءً من الأرواح الخبيثة من الشياطين والجن، أو من أهل الكفر، أو من أهل الفسق، أو من أهل البدعة، ولذلك

يُجري الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ أيدي أوليائه المؤيَّدين بالإيمان يُجري عليهم من كشف الباطل وإحقاق الحق ما لا يجري علىٰ أيدي غيرهم؛ لأن معهم سلاحًا قويًا وهو الإيمان بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا عزُب عن الناس الأخذ بهذا الأصل وضعُف دينهم ضعفت عزّتهم كما روىٰ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسندٍ صحيح أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في قصة: «**إنا قومٌ أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة فيما سواه أذلنا الله**».

فدل هذا علىٰ أن كمال الحال واستقامة الأمر بأهل الإسلام مقرونةٍ بأخذهم بهذا الدين، فإذا ضعفوا في أخذهم وفرطوا في شيء منه حصل لهم من العجز والضعف بقدر ما يفوت من دينهم.

ولو لم يكن من محاسن هذا الدين الإسلام إلا هذا القرآن العظيم، الذي هو روحه وأساسه ومنبعه، الذي احتوىٰ علىٰ ما لم يحتو عليه كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله العالم؛ حيث احتوىٰ علىٰ كل علم نافع ومعارف صحيحة، وأخبار صادقة، وعقائد جليلة، وأحكام جميلة، وأخلاق حميدة، وصلاح وإصلاح للدين والدنيا جميعًا، وبلاغةٍ عالية وغيوب صادقة، مطابقة وإحقاق لكل حقّ وإبطال لكل باطل، لكفىٰ به شرفًا وفضلًا وعلوًّا وارتفاعًا.

وهو الكتاب الذي لو جعلته جميع الأمم أمامها لقادها إلىٰ كل سعادة وفلاح، ولمنعها من كل انهيار وشقاء، وليس هذا مجرّد دعوىٰ ومبالغة؛ بل هو أقل ما يقال عن القرآن، ومن عنده أدنىٰ فَهْمٌ، وإنصاف اعترف بذلك بلا ريب؛ لأنه مشتمل علىٰ جميع وجوه الإعجاز الذي هو آيات بيِّنات وبراهين ساطعات من جهة لفظه وحُسنه وبلاغته وأسلوبه العجيب، بحيث لا يقاربه أي كلام كان.

ومن جهة ما فيه من علومِ الغيب التي وقعت مطابقةً للواقع في زمان النبوّة وبعده لا تزال تظهر حينًا بعد حين، ومن جهة اتِّفاق معانيه وعدم الاختلاف، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

ومن جهة ما اشتمل عليه من العلوم الراقية الشرعية والتشريعية والكونية، ومن جهة عجز الخلق عن معارضته ومناقضته وإبداء خلافٍ ما أخبر به مع التحدي التام للأولين والآخرين، فلا تُعارض ألفاظه ولا معانيه.

ومن جهة تحقيقه لأمورٍ كانت مجهولةً للخلق من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن موجودة في زمن البعثة كما قرر ذلك حكماء هذه الأمة في الأزمنة الأخيرة، فهو أكبر دليلٍ وبرهان علىٰ نبوّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ الدِّين الذي استمد منه هو دين الله حقًا الذي شرعه لعباده وجعله موصلًا إلىٰ سعادة

الدنيا والآخرة وبالله التوفيق.

قال ذلك وكتبه الفقير إلىٰ الله من جميع الوجوه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، وصلىٰ الله علىٰ محمّد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

ختم المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هذه النُّبذة الوجيزة ببيان الأصل العظيم الذي يرجع إليه بيان هذا الدين وهو إظهار محاسنه وهو القرآن الكريم، فإن هذا الكتاب الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله كتابًا يهتدي به الخلق في دين الإسلام هو كتابٌ لم يحتوِ غيرُه كما احتوىٰ عليه من المعارف والعلوم، ولا طرَق العالم كتابٌ قبله ولا بعده مثل ما في هذا القرآن، وتأمل فتدبر ما في آي القرآن الكريم من تحقيق هذا المعنىٰ؛ كقوله تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

فالقرآن يهدي للتي هي أقوم في العقائد والأقوال والأعمال.

ويهدي للتي هي أقوم فيما يتعلق: بأمر الإنسان خاصة، أو بأمور الخلق عامة فيما بينهم.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خبر الجن الذين سمعوا القرآن من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال علىٰ لسان أولئك القوم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف]، فالقرآن هادي إلىٰ كل حق، وهو هادٍ إلىٰ الطريق القويم في كل أمرٍ من الأمور، ومعارفه وعلومه السابقة واللاحقة وأخباره الصادقة شواهد مُعلمة بأن هذا الكتاب حُجة من ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزله علىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيةً وبُرهانًا.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من الأنبياء نبيٌ إلا أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي» يعني القرآن «وإني أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» فالحجة بالغة، والآية العُظمىٰ التي أوتيها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القرآن، وما أحسن ما يؤثر عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال شعرًا:

جميـــع العلـــم في القـــرآن لكـــن تقاصـــر عنـــه أفهـــام الرجـــال

وهذا [يُلفت] كما ذكر جماعة من المحققين كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وحفيده في التلمذة ابن رجب: أن أصل العلوم كلها هو القرآن الكريم، ولذلك يحصُل من بركة المعرفة والعلم لمن تعاطىٰ القرآن وأدمن النَّظر في تفسيره ومعرفة آياته ما لا يوجد عند من لم يُمارس علم القرآن وفهمه، وإن كان قد أدرك في شيءٍ من العلوم التي تعارف عليها الناس كعلم الفقه أو علم الاعتقاد أو علم الحديث، فإن العارف بالقرآن يستلّ من آيات القرآن الكريم ما يكون شاهد صدق ودليل برهان علىٰ

صحة تلك المعارف والعلوم، ومن نظر في كلام أهل القرآن العارفين بتفسيره ممن يتعاطىٰ علم الاعتقاد، أو الحديث أو البلاغة أو النحو رأىٰ أنه يجري علىٰ لسانه من المعارف القرآنية ما لا يجري علىٰ لسان غيره.

أسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يرزقنا فهم كتابه، وأن يجعلنا من أولياء دينه، وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الدرس.

والحمد لله رب العالمين. وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.